الْحالَةُ الْغَريبَةُ لِلْفَتى حَسّونَة !

قصة: ميشيل حنا
رسوم: سارة وفيق



تَمَّ تَقْديمُ هَذا الْعَمَلِ لَكُمْ بِدَعْمٍ مِنْ

Australian Aid

World Vision

USAID
FROM THE AMERICAN PEOPLE

ALL CHILDREN READING:
A GRAND CHALLENGE FOR DEVELOPMENT



عـادَةً مـا يَكـونُ هُنـاكَ ثَلاثَـةُ أَنْـواعٍ مِـنَ التَّلاميـذِ في كُلِّ فَصْـلٍ: هُنـاكَ تَلاميذُ مُتَفَوِّقـونَ، يَحْصُلـونَ كُلَّ شَـهْرٍ عَـلى أَعْـلى الدَّرَجـاتِ وَيَتَنافَسـونَ فيـما بَيْنَهُـمْ عَـلى الْمَراكِـزِ الْأولى، وَهـؤُلاءِ نُسَـمّيهِمُ "الدَّحّاحـينَ" أَوْ "الْحَرّيتَـةَ"، وَهُـمْ غالِبًـا عَـلى الْمَقاعِـدِ الْأولى. وَإِذا كانَ بَعْضُهُـمْ يَقْعُـدُ عَـلى غَيْرِهـا، فَـإِنَّ الْمُـدَرِّسَ يَنْقُلُـهُ إِلى الْمَقاعِـدِ الْأَماميَّـةِ عِنْدَمـا يَتَناهـى إِلى عِلْمِـهِ أَنَّ أَحَـدَ الْمُفَتِّشينَ سَيَزورُ الْفَصْلَ!

وَهُنـاكَ الطَّلَبَـةُ الْبُلَـداءُ الَّذيـنَ لا يُذاكِـرونَ مُطْلَقًـا وَيَحْصُلـونَ عَـلى أَقَـلِّ دَرَجـاتِ الْفَصْـلِ، وَهُـمْ غالِبًـا مـا يَقْعُـدونَ في مَجْموعـاتٍ في نِهايَـةِ الْفَصْـلِ لِيَتَمَكَّنـوا مِـنَ الْغِشِّ في أَثْنـاءِ الِامْتِحانـاتِ، وَالْـكَلامِ أَثْنـاءَ الـشَّرْحِ. وَيُكَوِّنـونَ عِصابـاتٍ صَغـيرَةً مُتَخَصِّصَـةً في التَّنَمُّـرِ عَـلى الطَّلَبَـةِ الْمُتَفَوِّقـينَ بِشَـتّى السُّـبُلِ، وَزَعيمُهُـمْ في فَصْلِنـا هُـوَ الْوَلَـدُ حَسّـونَةُ، الَّـذي يَكْبُرُنـا بِنَحْـوِ خَمْـسِ سَـنَواتٍ؛ لِأَنَّـهُ يَقْـضي عامَـيْنِ في كُلِّ سَـنَةٍ دِراسِـيَّةٍ، لِذلِـكَ فَهُـوَ زَميـلٌ لِدَفْعـاتٍ عَديدَةٍ مِنَ الطُّلّابِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَعْمارِ!

اَلْفِئَةُ الثّالِثَةُ مِنَ الطُّلّابِ هِيَ فِئَةُ الطَّلَبَةِ الْعادِيِّيْنَ، وَيُمَثِّلونَ نَحْوَ ثُلُثَيِّ الْفَصْلِ، وَغالِبًا ما تَتَأَرْجَحُ دَرَجاتُهُمْ بَيْنَ الْجَيِّدِ وَالسَّيِّئِ بِحَسَبِ مَجْهودِهِمْ؛ فَهُمْ لا يَبْذُلونَ الْمَجْهودَ نَفْسَهُ كُلَّ شَهْرٍ، وَإِنَّما يَخْتَلِفُ أَداؤُهُمْ بِاخْتِلافِ أَشْياءَ كَثيرَةٍ مِنْ أَهَمِّها نَوْعِيَّةُ الْمَرْئِيّاتِ الْمَعْروضَةِ في التِّلْفازِ، إِضافَةً إِلى عَوامِلَ أُخْرى كَثيرَةٍ تُؤَثِّرُ عَلى مُعَدَّلِ الْمُذاكَرَةِ لَدَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اهْتِماماتِهِمْ مُتَنَوِّعَةٌ وَلَيْسَتْ مُنْصَبَّةً عَلى الْمُذاكَرَةِ فَقَطْ مِثْلَ فِئَةِ الْمُتَفَوِّقينَ. مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَجِدَ أَحَدَهُمْ وَقَدْ حَصَلَ عَلى دَرَجاتٍ عالِيَةٍ عَلى غَيْرِ الْمُعْتادِ في أَحَدِ الْأَشْهُرِ، عِنْدَما يَتَضامَنُ الاِجْتِهادُ مَعَ الظُّروفِ الْجَوِّيَّةِ وَالتِّلْفازِيَّةِ الْمُلائِمَةِ. لكِنَّنا لَمْ نَتَوَقَّعْ أَبَدًا أَنْ تَظْهَرَ النَّتيجَةُ فَنَجِدَ حَسّونَةَ الْأَوَّلَ عَلى الْفَصْلِ، بَلْ حاصِدًا لِأَعْلى الدَّرَجاتِ النِّهائِيَّةِ في جَميعِ الْمَوادِّ!

كانَتْ مُفاجَأَةً صادِمَةً لِلْمُدَرِّسينَ قَبْلَ الطَّلَبَةِ؛ الْكُلُّ كانَ واثِقًا مِنْ أَنَّهُ قَدِ اسْتَطاعَ الْغِشَّ بِطَريقَةٍ ما.
لكِنَّ الْغِشَّ كَفيلٌ بِتَجاوُزِ الْحَدِّ الْأَدْنى لِلنَّجاحِ، لا بِأَنْ يَحْصُدَ أَعْلى الدَّرَجاتِ النِّهائِيَّةِ، فَهذِهِ الدَّرَجاتُ لا يَتَحَصَّلُ عَلَيْها إِلّا صاحِبُ الْإِجاباتِ النَّموذَجِيَّةِ.

كانَ شَريفٌ حَزينًا جِدًّا وَمَقْهورًا؛ شَريفٌ أَفْضَلُ تِلْميذٍ في الْفَصْلِ وَالْأَوَّلُ دائِمًا، وَهُوَ لا يَهْتَمُّ بِأَيِّ شَيْءٍ في الْعالَمِ خارِجَ الْكُتُبِ الدِّراسِيَّةِ، وَلَدَيْهِ قُدْرَةٌ عَجيبَةٌ عَلى الْحِفْظِ. في أَيّامِ الاِمْتِحاناتِ لا يُكَلِّمُ أَحَدًا، بَلْ يَقِفُ مُنْفَرِدًا بِنَفْسِهِ، وَيَظَلُّ في حالَةٍ مِنَ التَّرْكيزِ وَالتَّفْكيرِ الْعَميقِ. أَحْيانًا كُنّا نَشُكُّ في أَنَّهُ إِنْسالَةٌ (إِنْسانٌ آلي)، وَأَنَّهُ يَقِفُ هكَذا لِيَشْحَنَ مُدَّخَرَتَهُ (بَطّارِيَّتَهُ). بَعْدَ إِعْلانِ نَتائِجِ الشَّهْرِ، وَبَعْدَ انْصِرافِ الْمُدَرِّسِ، قامَ حَسّونَةُ وَعِصابَتُهُ مِنَ التَّلاميذِ الْبُلَداءِ، فَتْحي وَناجي وَهاشِمٌ، لِيُضايِقوا شَريفًا وَيُعايِروهُ بِأَنَّ حَسّونَةَ تَفَوَّقَ عَلَيْهِ هذا الشَّهْرَ؛ جَذَبوهُ إِلى الْمِساحَةِ الْخالِيَةِ أَمامَ السَّبّورَةِ وَتَحَلَّقوا حَوْلَهُ وَأَخَذوا يُغَنّونَ "حَسّوووونَةُ...حَسّونَةُ لا غَيْرُهُ!".

تَخَلَّصَ مِنْهُمْ شَريفٌ بَعْدَ جَهْدٍ وَعادَ إِلى مَكانِهِ.



فَاسْتَلّوا حقيبَتَـهُ الْمَدْرَسِيَّةَ وَأَخَـذوا يَتَقاذَفونَهـا فيـما بَيْنَهُـمْ. عَمَـلٌ سَـخيفٌ لا يَصْـدُرُ إِلّا عَـنْ سُـخَفاءَ، لكِنَّنـا كُنّـا نَخـافُ مِـنَ التَّعَـرُّضِ لَهُـمْ لِأَنَّهُـمْ يَتَمَتَّعونَ بِقُـوَّةٍ بَدَنِيَّـةٍ كَبيرَةٍ. عَرَفْـتُ بَعْـدَ ذلِـكَ أَنَّ شَريفًـا ذَهَـبَ لِيَتَحَـدَّثَ مَـعَ مُـدَرِّسِ التّاريخِ، وَهُـوَ رائِدُ الْفَصْلِ أَيْضًـا، بِخُصوصِ التَّفَـوُّقِ الْمُفاجِـئِ لِحَسّـونَةَ، وَقَـدْ كانَ الْمُـدَرِّسُ مُقْتَنِعًـا بِـرَأْيِ شَريـفٍ بِـأَنَّ حَسّـونَةَ يَسْـتَخْدِمُ وَسيلَةً مـا لِلْغِـشِّ، وَلَعَلَّهـا وَسـيلَةٌ جَديـدَةٌ مُبْتَكَـرَةٌ، لِأَنَّ أَحَـدًا لَـمْ يَكْشِـفْهُ في أَيٍّ مِـنَ امْتِحانـاتِ الشَّـهْرِ الْـماضي، لِـذا فَقَـدْ قـالَ الْمُـدَرِّسُ لِشَريـفٍ إِنَّـهُ سَيُقَرِّرُ امْتِحانًا مُفاجِئًا غَدًا -عَلى أَلّا يُخْبِرَ شَريفٌ أَحَدًا بِالْأَمْرِ-.

وَلْنَرَ ماذا سَيَصْنَعُ حَسّونَةُ!

في حِصَّـةِ التّاريـخِ في الْيَـوْمِ التّـالي طَلَـبَ مِنّـا الْمُعَلِّـمُ أَنْ نَضَـعَ كُتُبَنـا في الْحَقائِـبِ وَأَنْ نُخْـرِجَ وَرَقَـةً بَيْضـاءَ وَقَلَـمًا. كَتَـبَ لَنـا أَسْـئِلَةَ الِامْتِحـانِ عَـلى السَّـبّورَةِ ثُـمَّ ذَهَـبَ وَجَلَـسَ بِجانِـبِ حَسّـونَةَ. كانَ الِامْتِحانُ طَويـلًا وَصَعْبًـا وَيَتَطَلَّبُ كِتابَةَ أَجزاءٍ كَبيرَةٍ مِنَ الْمَنْهَجِ.

وَقَدْ كانَ الْمُدَرِّسُ مَذْهولًا لِمُشاهَدَتِهِ حَسّونَةَ يَكْتُبُ الْإِجاباتِ فِي الْوَرَقَةِ بِنَفْسِ النَّصِّ كَما وَرَدَتْ فِي الْكِتابِ الْمَدْرَسِيِّ! كانَتْ إِجاباتٍ نَموذَجِيَّةً لا تَشوبُها شائِبَةٌ، وَقَدْ دَقَّقَ الْمُعَلِّمُ كَثيرًا فِي الطّاوِلَةِ الَّتي يَكْتُبُ عَلَيْها وَفي مَلابِسِهِ، كَما فَحَصَ أُذُنَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ سَمّاعاتٍ تُمْلي عَلَيْهِ الْمَعْلوماتِ.

بَعْدَ انْتِهاءِ الْوَقْتِ الْمُخَصَّصِ لِلامْتِحانِ، شَرَعَ الْمُعَلِّمُ عَلى الْفَوْرِ في تَصْحيحِ الْإِجاباتِ وَإِعْلانِ النَّتائِجِ.

حَصَلَ حَسّونَةُ عَلى عَلامَةِ عِشْرينَ مِنْ عِشْرينَ، بَيْنَما حَصَلَ شَريفٌ عَلى تِسْعَ عَشْرَةَ وَنِصْفًا! كانَتْ إِجابَةُ شَريفٍ كامِلَةً هِيَ أَيْضًا، لَكِنَّ الْمُعَلِّمَ انْتَقَصَ مِنْهُ نِصْفَ دَرَجَةٍ لِأَنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُساوِيَ دَرَجَتَهُ بِدَرَجَةِ وَرَقَةٍ أُخْرى كُتِبَتْ فيها إِجابَةٌ مُتَطابِقَةٌ مَعَ نَصِّ الْكِتابِ -حَتّى في مَواضِعِ الْفَواصِلِ وَالنِّقاطِ- مِثْلَ إِجابَةِ حَسّونَةَ! كانَ شَريفٌ في غايَةِ الْقَهْرِ، وَقَدْ شَعَرْتُ بِالْأَسى مِنْ أَجْلِهِ، فَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ صَديقي، إِلّا أَنّنا جَميعًا نَحْتَرِمُهُ وَنُقَدِّرُ اجْتِهادَهُ وَانْغِماسَهُ فِي الْمُذاكَرَةِ، وَيَسْتَحِقُّ أَنْ يَكونَ الْأَوَّلَ عَلى الْفَصْلِ، بَيْنَما نَحْنُ عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّ حَسّونَةَ يُخْفي سِرًّا ما، إِلّا إِنْ كانَتْ هُناكَ مُعْجِزَةٌ ما قَدْ حَدَثَتْ!

بِالطَّبْعِ بَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ الْمُعَلِّمُ قامَتْ عِصابَةُ حَسّونَةَ لِتُكَرِّرَ مُضايَقاتِ الْمَرَّةِ السّابِقَةِ؛ جَذَبوهُ مَرَّةً أُخْرى مِنْ مَكانِهِ وَأَخَذوا يَتَلاقَفونَهُ. غَمَرَني الْغَضَبُ وَأَنا أَراهُمْ يَعْتَدونَ عَلى شَريفٍ ضَعيفِ الْبُنْيَةِ دونَ أَنْ يَتَصَدّى لَهُمْ أَحَدٌ. وَقَفْتُ وَصِحْتُ فيهِمْ أَنْ يَتَوَقَّفوا، وَهُنا تَوَقَّفوا بِالْفِعْلِ! وسادَ صَمْتٌ مُطبِقٌ فِي الْفَصْلِ، وَشَعَرْتُ بِصَدى كَلِماتي يَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْجُدْرانِ، وَشَعَرْتُ بِرَهْبَةٍ غَريبَةٍ، وَبِأَعْيُنِ الْفَصْلِ كُلِّهِ مُرَكَّزَةً عَلَيَّ. حَدَّقَ بي حَسّونَةُ وَقَدْ قَوَّسَ أَحَدَ حاجِبَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَقَدَّمُ مِنّي بِخُطًى وَئيدَةٍ، وَبِطَريقَةٍ دِرامِيَّةٍ لِيُثيرَ ذُعْري. كانَ أَطْوَلَ مِنّي بِمَراحِلَ، وَهُوَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُطيحَ بي بِلَطْمَةٍ واحِدَةٍ. شَعَرْتُ بِقَلْبي يَخْفِقُ بِعُنْفٍ، وَبِأَنَّني ارْتَكَبْتُ عَمَلًا أَحْمَقَ، لَكِنْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَمْضِيَ في هذا الْعَمَلِ حَتّى النِّهايَةِ. قالَ حَسّونَةُ بِلَهْجَةٍ قَذِرَةٍ: "لَمْ أَسْمَعْ ماذا قالَ هذا الْوَلَدُ. هَلْ تَفَوَّهَ بِشَيْءٍ؟".

لَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَرُدُّ؛ لَمْ أَشَأْ أَنْ أَقولَ شَيْئًا يُعَرِّضُني لِلسُّخْرِيَةِ، فَهُمْ قادِرونَ عَلى السُّخْرِيَةِ مِنْ أَيِّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. كانَ حَسّونَةُ قَدِ اقْتَرَبَ مِنّي كَثيرًا، إِلّا أَنَّني لَمْ أَتَراجَعْ، بَلْ وَقَفْتُ ثابِتًا مُتَظاهِرًا بِالشَّجاعَةِ. أَلْصَقَ حَسّونَةُ أَنْفَهُ بِأَنْفي وَهُوَ يَنْظُرُ لي نَظْرَةَ هُزْءٍ مِثْلَما يَصْنَعُ رِجالُ الْعِصاباتِ فِي الْأَفْلامِ. شَعَرْتُ أَنَّهُ عَلى وَشْكِ أَنْ يُطيحَ بِي، وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالضَّبْطِ، سُمِعَ صَوْتُ الْمُعَلِّمِ هادِرًا فَتَراجَعَ حَسّونَةُ عَلى الْفَوْرِ.

كانَ الْمُعَلِّمُ قَدْ دَخَلَ الْفَصْلَ وَرَأى ما يَحْدُثُ، فَصاحَ بِحَسّونَةَ أَنْ يَتَوَقَّفَ ثُمَّ أَنَّبَهُ تَأْنيبًا شَديدًا، وَحَذَّرَهُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلى الِاعْتِداءِ عَلى أَحَدٍ فِي الْفَصْلِ. عُدْتُ إِلى مَكاني وَأَنا أَرْتَجِفُ، وَحاوَلْتُ جاهِدًا أَلّا يَبْدوَ عَلَيَّ هذا. لَقَدِ انْتَصَرْتُ عَلَيْهِ ظاهِرِيًّا، فَلَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَحَدّى أَحَدٌ حَسّونَةَ بِهذا الشَّكْلِ، لكِنّي واثِقٌ مِنْ أَنَّهُ سَيَنْتَقِمُ في وَقْتٍ لاحِقٍ. لَمْ يُحاوِلْ حَسّونَةُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنّي حَتّى نِهايَةِ الْيَوْمِ الدِّراسِيِّ، لكِنّي شَعَرْتُ بِالْغَيْظِ مِنْ أَصْدِقائِيَ الَّذينَ قَبَعوا في أَماكِنِهِمْ دونَ أَنْ يُحاوِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسانَدَتي؛ لابُدَّ أَنَّهُمْ ظَنّوني مَجْنونًا لِتَحَدِّيَّ حَسّونَةَ، وَأَنَّهُ بِالتَّأْكيدِ لا فائِدَةَ مِنَ الْوُقوفِ إِلى جانِبِ شَخْصٍ مَجْنونٍ! لكِنَّ شَريفًا كانَ مُمْتَنًّا لي جِدًّا وَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّني كَسِبْتُ صَديقًا جَديدًا الْيَوْمَ.

سِرْتُ قَليلًا مَعَ شَريفٍ فِي الطَّريقِ إِلى الْمَنْزِلِ، وَخِلالَ ذلِكَ طَلَبَ مِنّي أَنْ نَعيشَ مَعًا مُغامَرَةً صَغيرَةً. قالَ شَريفٌ إِنَّهُ سَمِعَ حَسّونَةَ يَطْلُبُ مِنْ ناجي أَنْ يَصْطَحِبَهُ بَعْدَ الظُّهْرِ لِلْحُصولِ عَلى جُزْءٍ آخَرَ مِنَ الْمَنْهَجِ. تَعَجَّبْتُ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ الْمَرْءُ عَلى جُزْءٍ مِنَ الْمَنْهَجِ؟! هَلْ يَذْهَبُ مَثَلًا لِتَلَقّي دَرْسٍ خُصوصِيٍّ؟ وَأَيُّ دَرْسٍ ذاكَ الَّذي يَجْعَلُهُ يَحْفَظُ الْمَناهِجَ الدِّراسِيَّةَ بِكُلِّ هذِهِ الدِّقَّةِ؛ هُوَ الَّذي لا يَبْذُلُ أَيَّ جُهْدٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ فِي الْمُذاكَرَةِ؟

قالَ شَريفٌ إِنَّهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ سَيَكْتَشِفُ السِّرَّ الَّذي جَعَلَ حَسّونَةَ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِ، إِنِ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَتَبَّعَهُ وَيُراقِبَ ماذا يَفْعَلُ. تَرَدَّدْتُ؛ فَأَنا أُريدُ أَنْ أُساعِدَ شَريفًا، لكِنْ إِنِ اكْتَشَفَ حَسّونَةُ أَنَّنا نُراقِبُهُ فَسَيَكونُ في ذلِكَ هَلاكُنا.



قُلْتُ لَهُ كَيْ أُثْنِيَهُ عَنْ فِكْرَتِهِ: إِنَّنا لا نَعْرِفُ إِلى أَيْنَ هُما ذاهِبانِ وَلا مَتى، فَكَيْفَ سَنَسْتَطيعُ أَنْ نُراقِبَهُما؟ قالَ إِنَّهُ سَمِعَ حَسّونَةَ يَأْمُرُ ناجِيًا بِانْتِظارِهِ أَمامَ الْمَدْرَسَةِ في السّاعَةِ السّادِسَةِ. وَلَمْ يَحْتَجْ إِلى أَيِّ حيلَةٍ لِلتَّنَصُّتِ وَالْحُصولِ عَلى هذِهِ الْمَعْلومَةِ، لِأَنَّ أَصْواتَهُما عالِيَةٌ بِما يَكْفي.

لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ قَبولِ هذِهِ الْمُغامَرَةِ، فَلَمْ أَكُنْ أُريدُ أَنْ يَظُنَّ بي جُبْنًا بَعْدَ أَنْ أَظْهَرْتُ كُلَّ هذِهِ الشَّجاعَةِ الْيَوْمَ، كَما أَنَّني أُريدُ بِشِدَّةٍ أَنْ أَعْرِفَ السِّرَّ. وَهكَذا اتَّفَقْنا أَنْ نَلْتَقِيَ في السّادِسَةِ إِلّا رُبْعًا لِنَتَتَبَّعَ حَسّونَةَ وَناجِيًا.

في الْميعادِ تَمامًا كُنّا واقِفَيْنِ خَلْفَ أَحَدِ الْأَكْشاكِ الْمُغْلَقَةِ، نُراقِبُ بابَ الْمَدْرَسَةِ. في تَمامِ السّادِسَةِ وَصَلَ ناجي، أَمّا حَسّونَةُ فَقَدْ تَأَخَّرَ رُبْعَ ساعَةٍ أُخْرى، كانَ ناجي خِلالَها يَنْتَظِرُهُ بِصَبْرٍ وَقَدْ باتَ واضِحًا أَنَّهُ يَخافُ مِنْهُ هُوَ الْآخَرُ. أَخَذْنا نَتَتَبَّعُهُما مِنْ بَعيدٍ، وَقَدْ حَرَصْنا عَلى أَلّا يَنْتَبِها إِلَيْنا، حَتّى رَأَيْناهُما يَدْلِفانِ إِلى إِحْدى الْبِناياتِ،

فَانطَلَقْنا نَجْري الْمَسافَةَ الْمُتَبَقِّيَةَ كَيْ لا يَفوتَنا إلى أَيِّ شَقَّةٍ سَيَدْخُلانِ. أَخَذْنا نَصْعَدُ الدَّرَجَ بِبُطْءٍ مُتَتَبِّعَيْنِ صَوْتَ أَقْدامِهِما، وَسَمِعْنا صَوْتَ بابٍ يُفْتَحُ وَيُغْلَقُ في الطّابِقِ الْعُلْوِيِّ، فَصَعِدْنا حَتّى بابِ الشَّقَّةِ، وَلِحُسْنِ الْحَظِّ كانَ الطّابِقُ يَحْتَوي عَلى شَقَّةٍ واحِدَةٍ فَلَمْ نَحْتَرْ في أَيٍّ مِنْها دَخَلا. وَقَفْنا نَتَبادَلُ النَّظَراتِ وَقَدْ بَدا واضِحًا أَنَّ مُغامَرَتَنا انْتَهَتْ عِنْدَ هذا الْحَدِّ، فَماذا يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَ بَعْدَ هذا؟

أَلْصَقَ شَريفٌ أُذُنَهُ بِالْبابِ، وَقالَ إِنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتًا غَريبًا. أَلْصَقْتُ أُذُني بِالْبابِ فَلَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا، وَبَدا لِيَ ما نَفْعَلُهُ سَخيفًا جِدًّا وَغَيْرَ مَنْطِقِيٍّ. وَهُنا سَمِعْنا صَرْخَةً عالِيَةً آتِيَةً مِنَ الدّاخِلِ. كانَ صَوْتَ حَسّونَةَ وَقَدْ بَدا واضِحًا أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ، وَشَعَرْنا بِقَشْعَريرَةٍ تَسْري في أَوْصالِنا. اِقْشَعَرَّتْ أَوْصالُنا عِنْدَما سَمِعْنا صَرْخَةَ حَسّونَةَ آتِيَةً مِنْ خَلْفِ الْبابِ، وَسَمِعْنا صَوْتَ شَيْءٍ ما يُكْسَرُ! وَقَفْنا قَليلًا نُحاوِلُ سَماعَ أَيِّ شَيْءٍ يَدُلُّنا عَلى حَقيقَةِ ما حَدَثَ فَلَمْ نَسْتَبِنْ شَيْئًا. بَعْدَ نَحْوِ دَقيقَةٍ، سَمِعْنا صَوْتَ خُطُواتٍ مُتَّجِهَةٍ نَحْوَ الْبابِ،

فَجَذَبَني شَريفٌ مِنْ يَدي لِنَهْبِطَ الدَّرَجَ بِسُرْعَةٍ، لكِنَّني نَبَّهْتُهُ إِلى أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ نَصْعَدَ إِلى أَعْلى حَتّى لا يَرانا الْهابِطُ عَلى الدَّرَجِ. صَعِدْنا بِسُرْعَةٍ إِلى الدَّوْرِ الْعُلْوِيِّ، وَأَنْزَلْنا رَأْسَيْنا خَلْفَ الدَّرابْزينِ لِنُراقِبَ الْوَضْعَ، وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فُتِحَ الْبابُ وَخَرَجَ حَسّونَةُ لِيَهْبِطَ الدَّرَجَ وَناجي في ذَيْلِهِ. ظَلَلْنا مُخْتَبِئَيْنِ لِدَقيقَتَيْنِ خَلْفَ الدَّرَبْزينِ ثُمَّ انْتَصَبْنا، لِنَجِدَ أَنَّ بابَ الشَّقَّةِ مَفْتوحٌ! لَقَدْ نَسِيَ حَسّونَةُ أَنْ يُغْلِقَ الْبابَ خَلْفَهُ؛ حَقًّا إِنَّ اللّا مُبالِيَ لا مُبالٍ في كُلِّ شَيْءٍ! أَرَدْنا أَنْ نَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ وَنُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى الشَّقَّةِ مِنَ الدّاخِلِ، فَلا مَعْنى لِهذِهِ الْمُغامَرَةِ إِذا لَمْ نَحْصُلْ عَلى أَيِّ مَعْلومَةٍ تُفَسِّرُ لَنا الَّذي يَحْدُثُ. وَهكَذا تَسَلَّلْنا عَلى أَطْرافِ أَصابِعِنا إِلى حَيْثُ الْبابُ الْمُوارِبُ وَتَهَيَّأْنا لِلدُّخولِ، لكِنَّ شَريفًا جَذَبَني مِنْ ذِراعي قَبْلَ أَنْ نَلِجَ وَهَمَسَ: "لكِنْ ماذا نَفْعَلُ إِنْ وَجَدْنا أَحَدًا في الدّاخِلِ؟". "وَماذا عَسانا فاعِلَيْنِ؟ الْحَلُّ بَسيطٌ". قُلْتُ لِشَريفٍ: "إِنْ حَدَثَ هذا فَسَنَدَّعي بِأَنَّنا نَسْأَلُ عَنْ شَقَّةِ شَخْصٍ ما، وَلْتَكُنْ شَقَّةَ الدُّكْتورِ هاشِمٍ !".

سَأَلَ شَريفٌ: "مَنِ الدُّكْتورُ هاشِمٌ هذا؟". قُلْتُ مِنْ بَيْنِ أَسْناني وَقَدْ أَغاظَتْني سَذاجَتُهُ: "هُوَ اسْمٌ عَشْوائِيٌّ يا شَريفُ! اِسْمٌ ما! أَرْجو أَلّا تَكونَ قَدْ صَدَّقْتَ أَنَّني أَبْحَثُ فِعْلًا عَنْ شَخْصٍ يُدْعى الدُّكْتورَ هاشِمًا". قالَ شَريفٌ: "لكِنْ، أَلا تَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الطَّبيعِيِّ أَنْ يَقْتَحِمَ أَحَدُهُمْ غُرْفَةَ نَوْمِكَ لِيَسْأَلَكَ عَنْ عُنْوانِ شَخْصٍ آخَرَ؟". "بِالْفِعْلِ هذا غَريبٌ، لكِنْ إِنْ ظَلَلْنا نُفَكِّرُ كَثيراً فَسَنَقْضي اللَّيْلَ كُلَّهُ أَمامَ الْبابِ. فَلْتَتَحَرَّكْ يا شَريفُ، هَيّا!". وَلَجْنا الصّالَةَ، وَكانَتْ مُضاءَةً بِمِصْباحٍ خافِتِ الْإِضاءَةِ، وَقَدْ جَذَبْتُ يَدَ شَريفٍ قَبْلَ أَنْ يَمُدَّها لِيُشْعِلَ النّورَ. إِنَّ هذا الْفَتى ساذَجٌ بِشَكْلٍ لا يُصَدَّقُ! لا جَرَمَ أَنَّهُ لا يُشاهِدُ الْأَفْلامَ الْأَجْنَبِيَّةَ، وَإِلّا لَصارَ أَكْثَرَ خِبْرَةً بِآدابِ اقْتِحامِ الشُّقَقِ! لَمْ تَكُنِ الرُّؤْيَةُ واضِحَةً تَمامًا، لكِنَّنا حَرَصْنا عَلى أَلّا نَصْطَدِمَ بِشَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُصْدِرَ صَوْتًا وَيَفْضَحَ أَمْرَنا. كانَ الْمَكانُ عادِيًّا تَمامًا؛ مُجَرَّدُ شَقَّةٍ أُخْرى. لاحَظْتُ وُجودَ بَعْضِ الْكَشاكيلِ وَالْأَقْلامِ مَوْضوعَةً عَلى الْمِنْضَدَةِ فَأَخَذْتُ أُقَلِّبُ فيها،

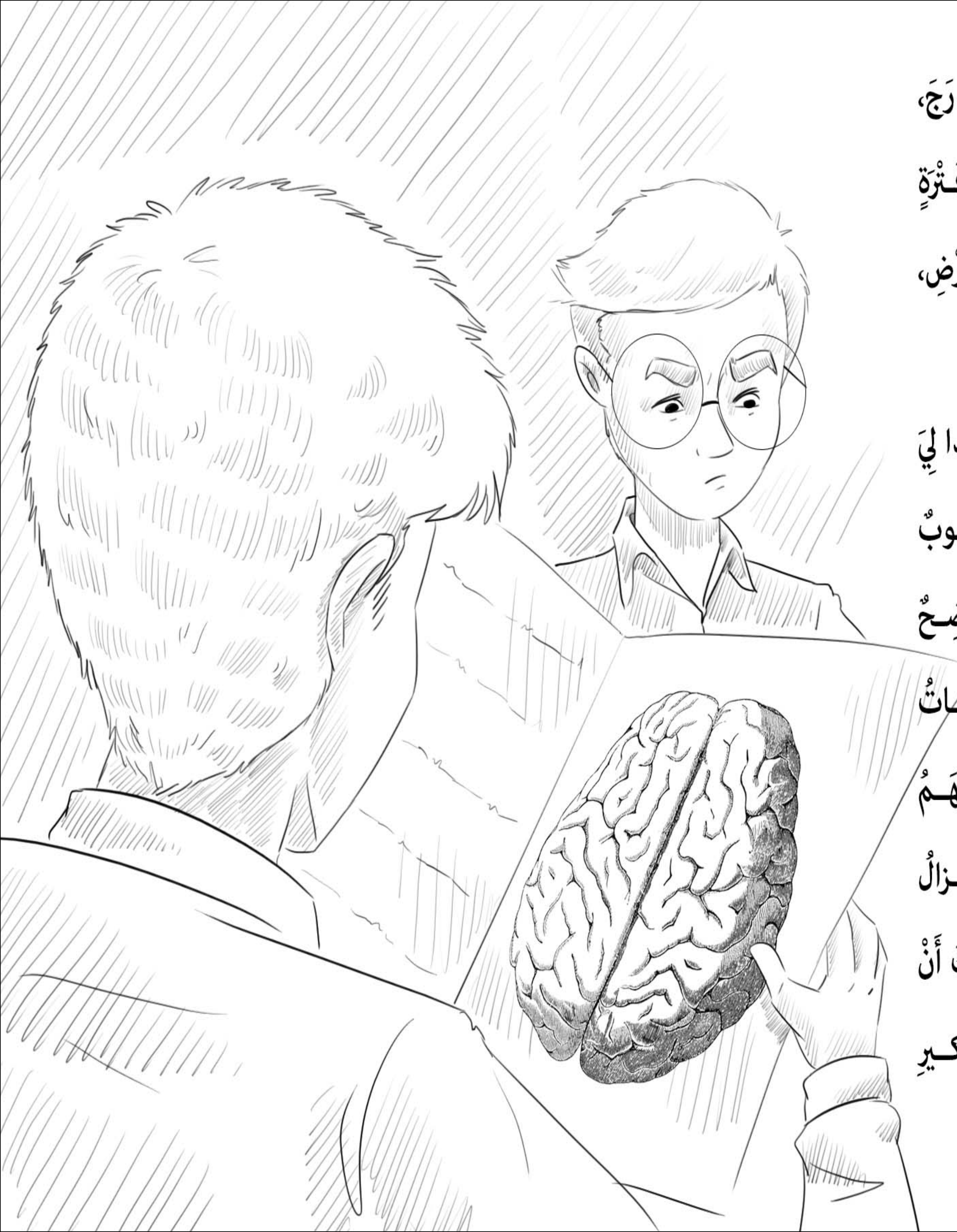
لكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ الْمَكْتوبَ بِسَبَبِ خُفوتِ الْإِضاءَةِ. اِتَّجَهَ شَريفٌ إِلى الرَّدْهَةِ، وَكانَتْ إِحْدى الْغُرَفِ مُضاءَةً. حاوَلْتُ أَنْ أُحَذِّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ يَكونُ هُناكَ شَخْصٌ ما في الْغُرْفَةِ لكِنَّهُ تَعَجَّلَ وَدَلَفَ إِلَيْها، وَهُنا سَمِعْتُ صَرْخَةَ رَجُلٍ تَأْتي مِنَ الدّاخِلِ،

وَرَأَيْتُ شَريفًا يَجْري كَالْقَذيفَةِ

خارِجًا مِنَ الْغُرْفَةِ،

فَبابِ الشَّقَّةِ!





رَكَضْتُ خَلْفَهُ وَقَدْ أَخَذَ قَلْبي يَخْفِقُ بِعُنْفٍ. قَفَزْنا هابِطَيْنِ الدَّرَجَ، وَخَرَجْنا مِنْ بابِ الْعِمارَةِ نَجْري في الشّارِعِ دونَ أَنْ نَلْتَفِتَ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ تَوَقَّفْنا، وَاسْتَنَدْنا إِلى أَحَدِ الْحَوائِطِ نَلْهَثُ، ثُمَّ قَعَدْنا عَلى الْأَرْضِ، وَعِنْدَها، لاحَظْتُ أَنَّ أَحَدَ الْكَشاكيلِ لا يَزالُ في يَدي!

أَخَذْتُ أَتَصَفَّحُ الْكَشْكولَ، وَأَلومُ شَريفًا عَلى تَسَرُّعِهِ أَثْناءَ ذلِكَ. بَدا لِيَ مَجْموعَةً مِنَ الْمُحاضَراتِ أَوِ الْمَقالاتِ أَوِ الْمُذَكِّراتِ؛ بَعْضُها مَكْتوبٌ بِخَطٍّ سَيِّئٍ مُتَعَجِّلٍ، وَبَعْضُها الْآخَرُ مَكْتوبٌ بِخَطٍّ جَميلٍ مُنَمَّقٍ. واضِحٌ أَنَّ الصَّفَحاتِ الْمَكْتوبَةَ بِالْخَطِّ السَّيِّئِ هِيَ الْمُسْوَدّاتُ، بَيْنَما الصَّفَحاتُ الْمُنَمَّقَةُ هِيَ "التَّبْييضُ". أَخَذْنا نَقْرَأُ الصَّفَحاتِ الْمُنَمَّقَةَ عَلَّنا نَفْهَمُ شَيْئًا: الْمُخُّ الْبَشَرِيُّ هُوَ أَكْثَرُ أَجْهِزَةِ الْجِسْمِ تَعْقيدًا وَغَرابَةً، وَلا يَزالُ الْكَثيرُ مِنْ مَناطِقِهِ مَجْهولَ الْوَظيفَةِ لَدى الْعُلَماءِ، لكِنْ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَتَعَجَّبَ عِنْدَما تَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ عَمَلِيّاتِ الْحِسابِ الْمَنْطِقِيِّ وَالتَّفْكيرِ وَالْأَفْكارِ الْعَبْقَرِيَّةِ تَخْرُجُ مِنْ هذِهِ الْمادَّةِ الدُّهْنِيَّةِ الطَّرِيَّةِ!

عمومًا، وَزْنُ الْمُخِّ يَتراوَحُ بَيْنَ كيلوجْرامٍ واحِدٍ وَكيلوجْرامٍ وَنِصْفٍ، وَهُوَ يَسْتَهْلِكُ نَحْوَ عِشْرينَ بِالْمِئَةِ مِنَ الطّاقَةِ الَّتي يَحْتاجُها الْجِسْمُ، تَصِلُ هذِهِ النِّسْبَةُ إِلى سِتّينَ بِالْمائَةِ في الْأَطْفالِ حَديثي الْوِلادَةِ وَالرُّضَّعِ. تَتَكَوَّنُ الْقِشْرَةُ الْخارِجِيَّةُ مِنْهُ مِنَ الْمادَّةِ الرَّمادِيَّةِ، وَفيها تَدورُ عَمَلِيّاتُ التَّفْكيرِ، بَيْنَما يَتَكَوَّنُ الْجُزْءُ الدّاخِلِيُّ مِنَ الْمادَّةِ الْبَيْضاءِ؛ وَالْمُخُّ نَفْسُهُ مُعَلَّقٌ في سائِلٍ كَثيفٍ يَحْميهِ مِنَ الصَّدَماتِ، وَمِنْ حَقِّ الْمُخِّ أَنْ يَحْصُلَ عَلى هذِهِ الْعِنايَةِ، فَهُوَ الْمُتَحَكِّمُ بِكُلِّ شَيْءٍ في الْجِسْمِ، مِنْ تَنْظيمِ حَرارَةِ الْجِسْمِ وَمُعَدَّلِ خَفَقانِ الْقَلْبِ، إِلى تَخْزينِ الْمَعْلوماتِ وَإِعْطاءِ الْأَوامِرِ لِلْعَضَلاتِ لِلْحَرَكَةِ.

في الْعُصورِ الْقَديمَةِ كانَتْ وَظيفَةُ الْمُخِّ غَيْرَ مَعْروفَةٍ تَمامًا، وَكانَ الْمِصْريونَ الْقُدَماءُ يَتَخَلَّصونَ مِنَ الْمُخِّ في عَمَلِيَّةِ التَّحْنيطِ وَيَحْتَفِظونَ بِالْقَلْبِ. كانَ الْعالِمانِ الإِسْكَنْدَرِيّانِ هيروفيلِسْ وَإِراسيسْتْراتوسْ هُما أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُخَّ هُوَ مَصْدَرُ الذَّكاءِ.

أُكَرِّرُ، إِنَّ الْكَثيرَ مِنْ مَناطِقِ الْمُخِّ لا تَزالُ مَجْهولَةَ الْوَظيفَةِ حَتّى الْآنَ، ما فَعَلْتُهُ أَنا هُوَ أَنَّني اكْتَشَفْتُ وَظيفَةً لِمَجْموعَةٍ مِنَ الْخَلايا في جِذْعِ الْمُخِّ، وَرَبَطْتُ هذا الاِكْتِشافَ بِأَحَدِ تَطْبيقاتِ الْحاسوبِ، وَسَأَشْرَحُ الْآنَ كَيْفَ.

هُناكَ تِقْنِيَّةٌ حاسوبِيَّةٌ لِلتَّوْصيلِ اللّاسِلْكِيِّ بَيْنَ الْأَجْهِزَةِ الْمُخْتَلِفَةِ حَلَّتْ مَحَلَّ الْأَسْلاكِ التَّقْليدِيَّةِ، اسْمُها الْبْلوتوثْ، وَمَعْنى الِاسْمِ "السِّنُّ الزَّرْقاءُ". وَهِيَ تَصْلُحُ لِلتَّعامُلِ مَعَ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الْأَجْهِزَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، مِثْلِ الحاسوبِ، وَالنَّقّالِ، وَالطّابِعاتِ وَحَتّى سَمّاعاتِ الرَّأْسِ. تَسْتَخْدِمُ هذِهِ التِّقْنِيَّةُ مَوْجاتِ الرّادْيو اللّاسِلْكِيَةِ لِنَقْلِ الْمَعْلوماتِ، وَتَعْمَلُ عَلى تَرَدُّدِ اِثْنَيْنِ وَنِصْفِ جيجاهيرْتْزٍ، وَهُوَ مَدًى يَقَعُ خارِجَ التَّرَدُّداتِ الْمُسْتَخْدَمَةِ في وَسائِلِ الاِتِّصالِ الْأُخْرى، وَبِالتّالي لا يَحْدُثُ تَعارُضٌ بَيْنَها وَبَيْنَ أَجْهِزَةٍ أُخْرى تَسْتَخْدِمُ مَوْجاتِ الرّادْيو. كانَ لَدَيَّ حُلْمٌ مُنْذُ صِغَري بِأَنْ أَحْصُلَ عَلى الْمَعْلوماتِ مِنَ الْكُتُبِ دونَ مُذاكَرَةٍ،

أَوْ أَنْ أَحْصُلَ عَلَيْها مِنْ عُقولِ الْمُدَرِّسينَ مُباشَرَةً. تَخَيَّلْ أَنْ تَدْخُلَ امْتِحانَ الْعُلومِ وَقَدْ نَقَلْتَ إِلى عَقْلِكَ كِتابَ الْعُلومِ بِأَكْمَلِهِ، أَوْ أَنْ تَأْخُذَ مُحْتَوياتِ مُخِّ مُعَلِّمِ الْعُلومِ عَنْ طَريقِ شُعاعٍ يَنْتَقِلُ مِنْ رَأْسِهِ إِلى رَأْسِكَ مُباشَرَةً دونَ تَعَبٍ! كَمْ سَيَكونُ هذا رائِعًا: نَلْعَبُ طَوالَ الْعامِ بَيْنَما نَحْصُلُ عَلى أَعْلى الدَّرَجاتِ. لَقَدْ حَقَّقْتُ هذا الْحُلْمَ!

كانَتِ الْفِكْرَةُ واضِحَةً في رَأْسي، لكِنَّني كُنْتُ في حاجَةٍ إِلى الْكَثيرِ مِنَ التَّجارِبِ لِأَتَحَقَّقَ مِنْها. أُريدُ أَنْ أَصِلَ إِلى طَريقَةٍ أُرْسِلُ بِها أَيَّ مَعْلومَةٍ مَوْجودَةٍ في الْحاسوبِ إِلى الْمُخِّ الْبَشَرِيِّ مُباشَرَةً بِاسْتِخْدامِ شُعاعِ الْبْلوتوثِ. وَكانَتِ الْمُشْكِلَةُ الَّتي واجَهَتْني هِيَ الْحُصولُ عَلى التَّمْويلِ اللّازِمِ لِلْبَحْثِ، وَالْمُشْكِلَةُ الْأُخْرى هِيَ الْعُثورُ عَلى مُتَطَوِّعينَ.

لَمْ تَقْبَلْ أَيٌّ مِنَ الْجامِعاتِ أَوْ مَراكِزِ الْبَحْثِ إِعْطائِيَ التَّمْويلَ اللّازِمَ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُقْنِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْفِكْرَةِ؛ حَيْثُ رَأى الْجَميعُ أَنَّ الْفِكْرَةَ غَيْرُ مَنْطِقِيَّةٍ وَمَجْنونَةٌ وَغَيْرُ قابِلَةٍ لِلتَّحْقيقِ.

هكَذا اضْطُرِرْتُ إِلى الِاعْتِمادِ عَلى ذاتي، وَلِحُسْنِ الْحَظِّ أَنَّني كُنْتُ أَمْتَلِكُ الْمالَ اللّازِمَ، وَقَدْ كُنْتُ مُسْتَعِدًّا لِإِنْفاقِ كُلِّ ما لَدَيَّ في سَبيلِ تَحْقيقِ الْفِكْرَةِ الَّتي إِذا نَجَحَتْ فَسَأَجْني مِنْها أَمْوالًا طائِلَةً.

أَنْشَأْتُ مَعْمَلًا صَغيرًا في إِحْدى غُرَفِ بَيْتي؛ كُلُّ ما كُنْتُ بِحاجَةٍ إِلَيْهِ هُوَ جِهازُ رَسْمٍ كَهْرَبِيٍّ لِلْمُخِّ وَأَجْهِزَةٌ لِقِياسِ الْمَوْجاتِ الْمِغْناطيسِيَّةِ وَالْكَهْرَبِيَّةِ بِالْمُخِّ، وَعَدَدٌ مِنَ الْحَواسيبِ وَمُوَلِّدُ ذَبْذَباتٍ.

اسْتَطَعْتُ بَعْدَ ذلِكَ الْحُصولَ عَلى عَدَدٍ مِنَ الْمُتَطَوِّعينَ؛ إِذا كانَ هُناكَ طالِبٌ فاشِلٌ دِراسِيًّا وَعَرَضْتَ عَلَيْهِ طَريقَةً تُمَكِّنُهُ مِنَ الْحُصولِ عَلى الدَّرَجاتِ الْعالِيَةِ في كُلِّ الْمَوادِّ مُقابِلَ أَنْ يَخْضَعَ لِبَعْضِ التَّجارِبِ في أَوْقاتٍ مُحَدَّدَةٍ، فَهَلْ سَيَرْفُضُ؟

وَضَعْتُ جَدْوَلًا مُعَيَّنًا لِلْعَمَلِ، فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَبْحَثَ في عِدَّةِ مَحاوِرَ:

أَوَّلًا: حَصَلْتُ عَلى الْمَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ لِلْأَوْلادِ الْمُتَطَوِّعينَ، وَقَدْ حَرَصْتُ عَلى أَنْ يَكونوا مِنْ سَنَةٍ دِراسِيَّةٍ واحِدَةٍ.

ثانِيًا: أَخَذْتُ بَعْدَ ذلِكَ أَقْرَأُ الْمَناهِجَ بَيْنَما رَسّامُ الْمُخِّ مُتَّصِلٌ بِرَأْسي، وَجِهازُ الْحاسوبِ مُتَّصِلٌ بِالرَّسّامِ يُسَجِّلُ الْإِشاراتِ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ.

ثالِثًا: خَزَّنْتُ هذِهِ الْإِشاراتِ في مَلَفٍّ مُسْتَقِلٍّ لِتَكونَ هِيَ الْمَعْلوماتِ الَّتي سَتَنْتَقِلُ إِلى الرُّؤوسِ بَعْدَ ذلِكَ. كانَتْ هذِهِ الْخُطْوَةُ ضَرورِيَّةً لِأُحَوِّلَ الْمَناهِجَ الْمَكْتوبَةَ إِلى إِشاراتٍ كَهْرَبِيَّةٍ، وَهِيَ الصّيغَةُ الَّتي يَفْهَمُها الْمُخُّ.

تَبْدَأُ الْآنَ مَرْحَلَةُ التَّجارِبِ عَلى الْمُتَطَوِّعينَ، حَيْثُ أُوَجِّهُ شُعاعَ الْبْلوتوثِ الَّذي يَحْمِلُ الْمَناهِجَ الدِّراسِيَّةَ إِلى مُخِّ الْمُتَطَوِّعِ.

واجَهَتْني هُنا مُشْكِلَتانِ: الْأولى: هِيَ أَنَّني لا أَعْرِفُ أَيْنَ تَقَعُ الْخَلايا الَّتي يُمْكِنُها أَنْ تَسْتَقْبِلَ الْمَعْلوماتِ الْمَحْمولَةَ عَلى الشُّعاعِ؛ هذا إِنْ كانَتْ هُناكَ فِعْلًا خَلايا قادِرَةٌ عَلى هذا.

الْمُشْكِلَةُ الثّانِيَةُ هِيَ: أَنَّني لا أَعْرِفُ أَيَّ تَرَدُّدٍ مَوْجِيٍّ يُمْكِنُ لِهذِهِ الْخَلايا اسْتِقْبالُهُ. لِذا كانَ عَلَيَّ أَنْ أُغَيِّرَ التَّرَدُّدَ الَّذي يَعْمَلُ عَلَيْهِ الشُّعاعُ ثُمَّ أُجَرِّبَ كُلَّ تَرَدُّدٍ عَلى حِدَةٍ مَعَ كُلِّ مِنْطَقَةٍ في الْمُخِّ.

اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ عِدَّةَ أَسابيعَ مُرْهِقَةٍ مِنَ التَّجْريبِ، حَتّى إِنَّني كِدْتُ أَيْأَسُ، لكِنَّ جَدْوَلَ التَّرَدُّداتِ مَعَ مَناطِقِ الْمُخِّ الَّذي أَعْدَدْتُهُ لَمْ يَكُنْ قَدِ انْتَهى بَعْدُ، وَكانَ لا بُدَّ أَنْ أَمْضِيَ بِالتَّجْرِبَةِ حَتّى نِهايَتِها.

اسْتَمْرَرْتُ في الْعَمَلِ حَتّى أَتى ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذي يَكْتُبُهُ كُلُّ عالِمٍ في مُذَكِّراتِهِ بِقَلَمٍ أَحْمَرَ: لَقَدْ نَجَحَتِ التَّجْرِبَةُ أَخيرًا!

كانَ مَعي وَلَدٌ مُتَطَوِّعٌ اسْمُهُ حَسّونَةُ، وَهُوَ فَتًى غَيْرُ مُهَذَّبٍ وَالتَّعامُلُ مَعَهُ صَعْبٌ نَوْعًا ما، وَكُنْتُ أُغْريهِ بِمُكافَآتٍ مالِيَّةٍ لِقَبولِ التَّجارِبِ، فَلَمْ يَكُنْ يَبْدو مُهْتَمًّا بِمَسْأَلَةِ أَنْ يُصْبِحَ مُتَفَوِّقًا بِأَيِّ حالٍ.

في ذلِكَ الْيَوْمِ وَبَعْدَ أَنْ أَعْدَدْتُ الْأَجْهِزَةَ لِلْعَمَلِ، وَضَبَطْتُ الشُّعاعَ عَلى تَرَدُّدٍ جَديدٍ -لَنْ أَذْكُرَهُ هُنا لِأَنَّهُ سِرِّيَ الْخاصُّ- وَوَجَّهْتُ الشُّعاعَ عَلى مِنْطَقَةٍ مُعَنَّيَةٍ بِجِذْعِ الْمُخِّ،



لاحَظْتُ أَنَّ الْأَلَـمَ بَـدَأَ يَظْهَـرُ عَـلى وَجْـهِ حَسّـونَةَ، وَقَـدْ زاغَـتْ عَيْـناهُ وَبَـدَأَ الْعَـرَقُ يَتَصَبَّـبُ مِنْـهُ بِغَـزارَةٍ. أَدْرَكْـتُ أَنَّنـي تَوَصَّلْـتُ إِلى الطَّريقَـةِ الصَّحيحَـةِ، إِذْ لَـمْ يَكُـنْ أَحَـدٌ مِنْهُـمْ يُبْـدي أَيَّ رَدِّ فِعْـلٍ في كُلِّ التَّجـارِبِ السّـابِقَةِ، وَعِنْدَمـا اخْتَـبَرْتُ حَسّـونَةَ بَعْـدَ ذلِـكَ وَجَدْتُـهُ يَتَذَكَّـرُ كُلَّ الْمَعْلومـاتِ الَّتـي أَرْسَـلْتُها لَهُ عَبْرَ الشُّعاعِ.

كُنْـتُ سَـعيدًا جِـدًّا في ذلِـكَ الْيَـوْمِ. لَقَـدْ نَجَحَـتْ تَجـارِبي أَخـيرًا وَأَثْبَـتُّ أَنَّ فَرَضِيَّتـي الْأولى كانَـتْ صَحيحَـةً. إِنَّ اخْتِراعًـا كَهـذا لَكَفيـلٌ بِتَغْيـيرِ حَيـاةِ الْبَـشَرِ إِلى الْأَبَـدِ! تَخَيَّلـوا عالَـمًا بِـدونِ مَـدارِسَ أَوْ جامِعـاتٍ أَوْ تَعْليـمٍ، وَأَطْفـالًا يَلْعَبـونَ طَـوالَ النَّهـارِ! تَخَيَّلـوا أَنْ نَحْصُـلَ عَـلى كُلِّ مَعْرِفَـةٍ عِلْمِيَّـةٍ مُمْكِنَـةٍ بِضَغْطَـةِ زِرٍّ وَفي ثَـوانٍ مَعْـدودَةٍ. مـاذا سَـيَكونُ شَـكْلُ الْعالَـمِ إِذا حَـدَثَ هـذا؟ يُمْكِـنُ لِشَـخْصٍ مِثْـلي أَنْ يَـدْرُسَ مَناهِـجَ الطِّـبِّ كُلَّهـا في دَقيقَـةٍ وَيُعالِـجَ نَفْسَـهُ مِـنْ أَيِّ مَـرَضٍ. إِنِ احْتَجْـتُ لِإِصْلاحِ جِهـازٍ كَهْرَبـائِيٍّ سَـأَحْقِنُ عَقْلِيَ بِالْكُتُبِ الَّتي تَخْتَصُّ بِهذا الْمَوْضوعِ ثُمَّ أُصْلِحُهُ بِلا عَناءٍ.

لَـنْ تكـونَ هُنـاكَ حاجَـةٌ بي لِخِدْمـاتِ أَيِّ شَـخْصٍ آخَـرَ، وَبِالتّـالي سَـأُوَفِّرُ أَمْـوالًا كَثيرَةً جِـدًّا. لكِـنْ مَهْلًا! مِـنْ أَيْـنَ سَـأَحْصُلُ أَنـا عَـلى راتِـبٍ إذا لَـمْ يَكُـنْ هُنـاكَ شَـخْصٌ يَحْتـاجُ إلى خِدْمـاتي؟ فَـكُلُّ النّـاسِ سَـتَحْصُلُ عَـلى الْمَعارِفِ الَّتي تَحْتاجُ إِلَيْها عَـنْ طَريـقِ الْجِهازِ الَّـذي اخْتَرَعْتُـهُ. يَبْـدو الْأَمْـرُ عَبَثِيًّـا وَبِحاجَـةٍ إلى مَزيـدِ دِراسَـةٍ. لكِـنَّ اخْـتِراعَ شَيْءٍ كَهـذا أَمْـرٌ حَتْمِـيٌّ لِيَتَضاعَـفَ اسْـتيعابُ الْبَـشَرِ مِـنَ الْمَعـارِفِ. لَقَـدْ بَـدَأَ الْأَمْـرُ وَلَـمْ يَعُـدْ مِـنَ الْمُمْكِنِ تَلافيهِ أَوْ إيقافُهُ.

تَوَقَّفْنـا عَـنِ الْقِراءَةِ عِنْـدَ هـذا الْحَـدِّ، إِذْ شَـعَرْنا بِظِلٍّ سَـقَطَ عَـلى الْكَشْـكولِ وَأَخْفـى الْإِضـاءَةَ عَـنِ الصَّفَحـاتِ. رَفَعْنـا أَعْيُنَنـا فَرَأَيْنـا حَسّـونَةَ وَناجِيًـا، وَكانَ حَسّونَةُ يَحْمِلُ في يَدِهِ عَصًا مُدَبَّبَةً، وَيَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً مَقيتَةً.

***

فوجِئْنـا بِحَسّـونَةَ وَناجـي يَقِفـانِ في مُواجَهَتِنـا، فَنَهَضْنـا لِنُواجِهَهُـما، لكِنَّنـا بَدَوْنـا كَقَزَمَـيْنِ يُواجِهـانِ عِمْلاقَـيْنِ. لاحَظْـتُ أَنَّ حَسّـونَةَ يُمْسِـكُ في يَـدِهِ عَصًـا غَليظَـةً مُدَبَّبَـةً يُلَـوِّحُ بِها في الْهَـواءِ. فَكَّـرْتُ في أَنْ أَجْـرِيَ لكِـنْ ظَهْرَيْنـا كانـا لِلْحائِـطِ بَيْنَـما هُـما يَسُـدّانِ عَلَيْنـا الطَّريـقَ، وَهكَـذا وَقَعْنـا بَـيْنَ الْمِطْرَقَـةِ وَالسَّنْدانِ.

هـذِهِ الْمَـرَّةَ لَـمْ أَشْـعُرْ بِالْخَـوْفِ، بَـلْ نَظَـرْتُ إلى حَسّـونَةَ بِغَضَـبٍ؛ كُنْـتُ قَـدْ واجَهْتُـهُ مِـنْ قَبْـلُ وَخَرَجْـتُ مِـنَ الْمُواجَهَـةِ سَـليمًا، ثُـمَّ مـا الَّـذي عَسـاهُ يَقَـعُ إذا تَلَقَّيْـتُ ضَرْبَـةً مِـنْ هـذِهِ الْعَصـا؟ مُجَـرَّدُ بَعْـضِ الْأَلَـمِ وَكَدْمَـةٌ! لا يُوْجَـدُ ما يُخيفُ وَلَنْ أَقْبَلَ مِثْلَ هذِهِ التَّهْديداتِ بَعْدَ الْآنَ.

قالَ حَسّونَةُ وَهُوَ يَلوكُ شَيْئًا ما في فَمِهِ: "إِذَنْ فَقَدْ عَرَفْتُما السِّرَّ؟".

هَتَفْـتُ: "مِـنَ الْأَفْضَـلِ لَـكَ أَنْ تُفْسِـحَ الطَّريـقَ يـا حَسّـونَةَ وَأَلّا تُحـاوِلَ شَـيْئًا أَحْمَقَ!".

قالَ ناجي بِاسْتِهْزاءٍ: "مَتى فَقَسَتْ عَنْكَ الْبَيْضَةُ أَيُّها الْكَتْكوتُ؟!".



وَمَدَّ يَدَهُ لِيُمْسِكَني مِنْ ياقَةِ الْقَميصِ، لكِنّي أَمْسَكْتُ يَدَهُ بِعُنْفٍ، فَدَفَعَني بِيَدِهِ لِأَلْتَصِقَ بِالْحائِطِ. حاوَلْتُ أَنْ أَدْفَعَهُ لكِنَّني لَمَسْتُ فَرْقَ الْقُوَّةِ الْعَضَلِيَّةِ الْكَبيرَ بَيْني وَبَيْنَهُ، وَشَعَرْتُ بِالنَّدَمِ عَلى إِهْمالي مُمارَسَةَ الرِّياضَةِ كُلَّ هذِهِ السِّنينَ!

قالَ حَسّونَةُ: "مِنْ سوءِ حَظِّكُما أَنَّني لَمْ أَكُنْ قَدِ ابْتَعَدْتُ كَثيرًا عَنِ الْبِنايَةِ عِنْدَما لَمَحْتُكُما تُهَرْوِلانِ مِنْها؛ لَقَدْ كُنْتُما تَجْرِيانِ كَالْمَجانينِ، وَقَدْ فَهِمْتُ الْأَمْرَ عِنْدَما رَأَيْتُكُما، لَقَدْ سَوَّلَتْ لَكُما نَفْساكُما أَنْ تَتَجَسَّسا عَلَيَّ، وَسَتَدْفَعانِ ثَمَنَ هذا غالِيًا. إِنَّكُما تَجْرِيانِ بِسُرْعَةٍ وَقَدْ فَقَدْتُ أَثَرَكُما وَاسْتَغْرَقَ مِنّي الْعُثورُ عَلَيْكُما بَعْضَ الْوَقْتِ.

هَلِ اسْتَمْتَعْتُما بِالْقِراءَةِ؟".

كُنْتُ لا أَزالُ مُمْسِكًا بِالْكَشْكولِ في يَدي وَأَنا مُلْتَصِقٌ بِالْحائِطِ. جَذَبَ مِنّي الْكَشْكولَ بِعُنْفٍ فَتَمَزَّقَتْ وَرَقَةُ الْغِلافِ. أَخَذْتُ أَنْظُرُ إِلى شَريفٍ الْمُنْكَمِشِ عَلى نَفْسِهِ دونَ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا.

بَدا واضِحًا أَنَّ حَسّونَةَ لا يَهْتَمُّ كَثيراً بِشَريفٍ وَقَدِ اكْتَفى بِتَفَوُّقِهِ عَلَيْهِ في الِامْتِحاناتِ الْأَخيرَةِ، وَأَنَّني سَأَتَعَرَّضُ الْآنَ لِانْتِقامِهِ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّيْتُهُ في الْفَصْلِ. فَلْتَفْعَلْ شَيْئًا يا شَريفُ، وَلا تَتْرُكْني هكَذا أَمامَ هذَيْنِ الْوَحْشَيْنِ!

قالَ حَسّونَةُ وَهُوَ يُقَلِّبُ في الْكَشْكولِ: "ما الْمَكْتوبُ هُنا؟".

قُلْتُ: "مَكْتوبٌ أَنَّ الَّذي يَخْضَعُ لِلتَّجْرِبَةِ يَموتُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ".

رَأَيْتُ الذُّعْرَ في عَيْنَيْهِ لِلَحْظَةٍ، ثُمَّ أَدْرَكَ أَنَّني أَسْخَرُ مِنْهُ، فَطَوَّحَ الْكَشْكولَ عَبْرَ الشّارِعِ بِغَضَبٍ.

قالَ حَسّونَةُ: "حَسَنًا أَيُّها الطِّفْلُ الْعَبْقَرِيُّ، إِنَّني أُحَذِّرُكَ الْآنَ؛ إِنْ عَرَفَ أَيُّ مَخْلوقٍ بِالسِّرِّ الَّذي عَرَفْتَهُ حالًا فَسَتَكونُ نِهايَتُكَ عَلى يَدي!".

قُلْتُ بِاسْتِخْفافٍ: "كَلامُكَ يَبْدو كَتَهْديدٍ بِالْقَتْلِ".

قالَ: "أَفْشِ السِّرَّ وَجَرِّبْني". تَرَكَني ناجي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَتَهالَكْتُ عَلى الْأَرْضِ. رَفَعَ حَسّونَةُ الْعَصا وَبَدا أَنَّهُ سَيَضْرِبُني بِها، نَظَرْتُ يَمينًا وَيَسارًا وَقَدَّرْتُ أَنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَنْهَضَ عَنِ الْأَرْضِ وَأَهْرُبَ قَبْلَ أَنْ تَهْوِيَ الْعَصا.

لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَحَدٌ يَسيرُ في الشّارِعِ فَلا فائِدَةَ مِنَ الصُّراخِ، وَشَريفٌ لَنْ يَجْرُؤَ عَلى فِعْلِ شَيْءٍ. ها قَدْ أَتَتِ اللَّحْظَةُ، وَسَأَكونُ شُجاعًا في مُواجَهَتِها؛ فَما هُوَ إِلّا بَعْضُ الْأَلَمِ ثُمَّ كَدْمَةٌ زَرْقاءُ. ها هُوَ الْأَلَمُ يَأْتي في الطَّريقِ بَيْنَما الْعَصا تَهْوي، تَعالَ أَيُّها الْأَلَمُ فَأَنا قادِرٌ عَلى تَحَمُّلِكَ؛ سَأَكونُ رَجُلًا وَأَتَحَمَّلُكَ وَلَنْ تُخيفَني بَعْدَ الْآنَ. هَلْ أَتَيْتَ؟ إِذَنْ..."آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ خ خ خ خ خ خ خ خ!!!!!". إِنَّ يَدَ هذا اللامبالي قَوِيَّةٌ فِعْلًا! أَمْسَكْتُ كَتِفي بِيَدي الْأُخْرى مُتَأَلِّمًا. كُلُّ ما أَرْجوهُ هُوَ أَلّا يَتَحَمَّسَ لِضَرْبَةٍ أُخْرى، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ أُمْنِيَتي لِأَنَّهُما جَرَيا عَلى الْفَوْرِ بَعْدَ أَنْ فَزِعا مِنْ صَرْخَتي. لَقَدْ عَبَرَ الْأَلَمُ وَبَقِيَتِ الْكَدْمَةُ الزَّرْقاءُ الَّتي سَيُصْبِحُ لَوْنُها أَغْمَقَ في الصَّباحِ، لكِنَّني لا أَنْوي النَّظَرَ إِلَيْها.

لَمْ أَشْتَكِ وَلَمْ أُخْبِرْ أَحَدًا بِما حَدَثَ. وَعِنْدَما عُدْتُ إِلى الْبَيْتِ حاوَلْتُ أَلّا يَبْدُوَ عَلَيَّ أَيُّ أَثَرٍ لِلْأَلَمِ؛ إِلّا أَنَّني عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ في الصَّباحِ وَجَدْتُ نَفْسي غَيْرَ قادِرٍ عَلى رَفْعِ ذِراعِيَ الْمُصابَةِ.



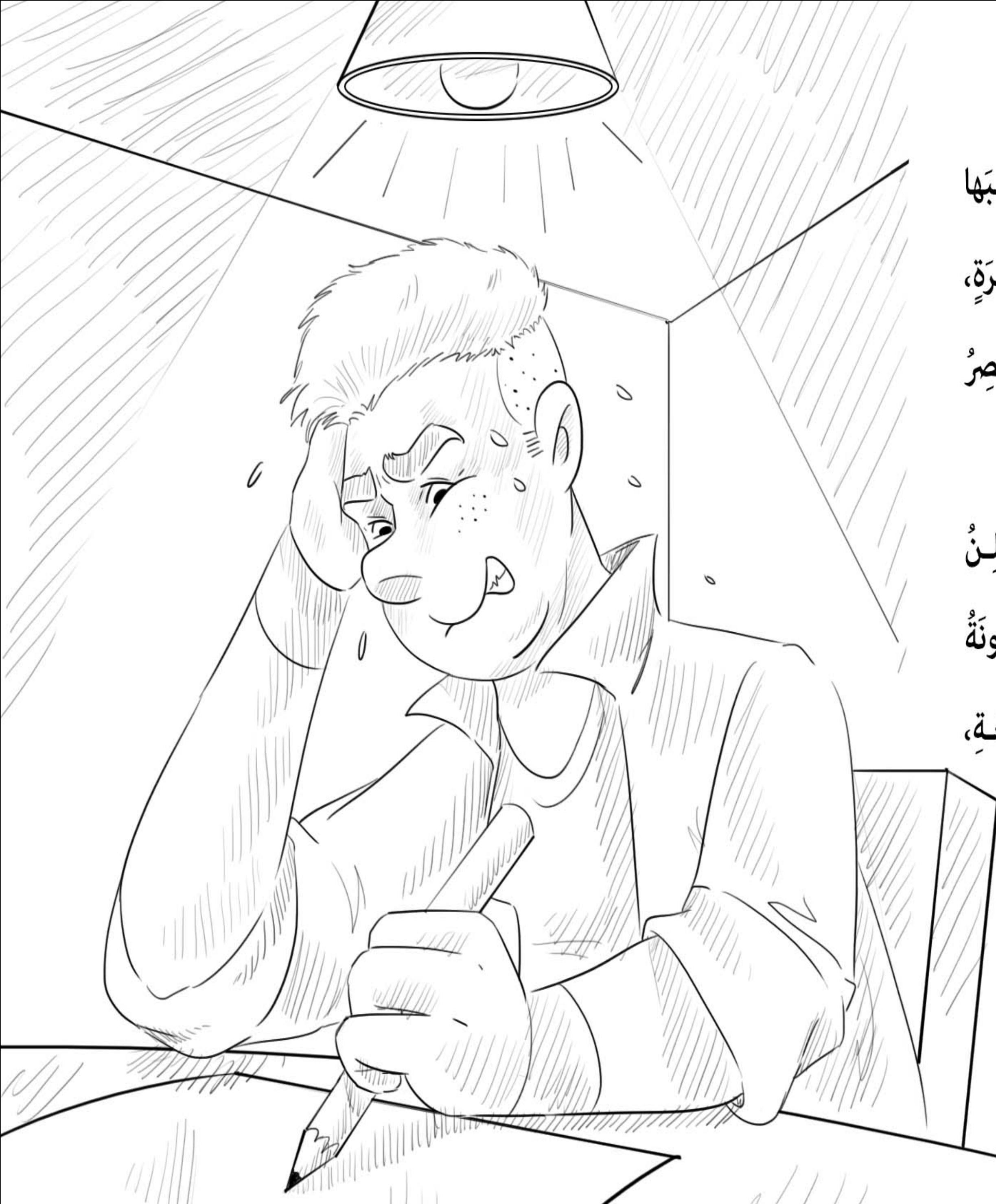
وَكانَ هُناكَ أَلَمٌ في كَتِفي يُهاجِمُني عِنْدَ أَدْنى حَرَكَةٍ. ارْتَدَيْتُ مَلابِسي بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ وَتَحامَلْتُ عَلى نَفْسي كَيْ أَصِلَ إِلى الْمَدْرَسَةِ في الْميعادِ الْمُعْتادِ. وَفي الْفَصْلِ تَجَنَّبْتُ شَريفًا، فَكَيْفَ أُكَلِّمُهُ بَعْدَ الْآنَ، بَعْدَ أَنْ تَعَرَّضْتُ لِكُلِّ هذا كَيْ أُساعِدَهُ بَيْنَما لَمْ يَفْعَلْ هُوَ لي شَيْئًا عِنْدَما كُنْتُ في وَرْطَةٍ؟ أَمّا حَسّونَةُ فَكانَ يُوَجِّهُ إِلي نَظَراتٍ نارِيَّةً مِنْ آنٍ لِآخَرَ، وَكانَ في نَظْرَتِهِ شَيْءٌ مِنَ التَّهْديدِ وَشَيْءٌ مِنَ الشَّماتَةِ وَشَيْءٌ مِنْ شُعورِ الْمُنْتَصِرِ. لا بَأْسَ؛ فَأَنا لَمْ أُقَرِّرْ بَعْدُ كَيْفَ سَأَتَصَرَّفُ مَعَهُ. في الْفُسْحَةِ، اقْتَرَبَ مِنّي شَريفٌ وَحاوَلَ أَنْ يَعْتَذِرَ عَنِ السَّلْبِيَّةِ الَّتي أَظْهَرَها أَمْسِ. قالَ إِنَّهُ حَتّى لَوْ حاوَلَ أَنْ يَضْرِبَ حَسّونَةَ لَما كانَ لِيُحْدِثَ فارِقًا، بَلْ هُوَ أَشْبَهُ بِلَكْمِ سورِ الْمَدْرَسَةِ، فَهَلْ يَتَأَلَّمُ السّورُ؟ نَظَرْتُ إِلى بُنْيَتِهِ الضَّعيفَةِ وَقَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّني تَحامَلْتُ عَلَيْهِ؛ كانَ لِيُضْرَبَ مِثْلي. لَقَدْ فَعَلَ صَوابًا، فَواحِدٌ مَضْروبٌ أَهْوَنُ مِنَ اثْنَيْنِ. قالَ شَريفٌ: "إِنَّ أَمْثالَ حَسّونَةَ لا يَجِبُ أَنْ نُواجِهَهُمْ بِالْعَضَلاتِ، لكِنْ يَجِبُ أَنْ نُحارِبَهُمْ بِشَيْءٍ آخَرَ لا يَمْتَلِكونَهُ: بِالْعَقْلِ!".

قُلْتُ: "لكِنَّ حَسّونَةَ يَمْتَلِكُ الْآنَ الْعَقْلَ، فَفي رَأْسِهِ كُلُّ الْمَعْلوماتِ الْمَوْجودَةِ في كُتُبِ الْمَنْهَجِ الدِّراسِيِّ".

قالَ شَريفٌ: "يَمْتَلِكُ الْمَعْلوماتِ وَلَيْسَ الْعَقْلَ، صَحيحٌ أَنَّ في رَأْسِهِ عَقْلًا لكِنَّهُ لا يَسْتَعْمِلُهُ، وَالْمَعْلوماتُ لا فائِدَةَ مِنْها إِذا لَمْ تَعْرِفْ كَيْفَ تَسْتَخْدِمُها". بَدا لي شَريفٌ غامِضًا الْيَوْمَ، وَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّ رَأْسَهُ مَليءٌ بِأَفْكارٍ لَمْ يُصَرِّحْ بِها، وَأَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أَتْرُكَ الْأَمْرَ لَهُ. مَضَتْ عِدَّةُ أَيّامٍ تَعافَتْ فيها ذِراعي، لكِنَّها لَمْ تَخْلُ مِنْ مُضايَقاتٍ وَكَلامٍ سَخيفٍ يُلْقيهِ حَسّونَةُ وَعِصابَتُهُ عَلَيْنا مِنْ آنٍ لِآخَرَ، لكِنَّنا كُنّا نَتَحَمَّلُ السَّخافاتِ بِصَبْرٍ وَكَأَنَّنا لَسْنا الْمَعْنِيَّيْنِ بِالْأَمْرِ، كانَ حَسّونَةُ لا يَزالُ سَعيدًا بِكَوْنِهِ الْأَوَّلَ عَلى الْفَصْلِ هذا الشَّهْرَ، وَقَدْ أَكَّدَ لي شَريفٌ أَنَّها الْمَرَّةُ الْأَخيرَةُ الَّتي سَيَتْرُكُهُ فيها يَحْصُلُ عَلى هذا اللَّقَبِ، وَلَمْ أَعْرِفْ لِمَ كانَ واثِقًا هكَذا. وَقَبْلَ الِامْتِحاناتِ الشَّهْرِيَّةِ بِيَوْمَيْنِ، فوجِئْنا بِأَنَّ مَصابيحَ الْفَصْلِ الْكَهْرُبائِيَّةَ قَدْ تَغَيَّرَتْ كُلُّها إِلى مَصابيحِ (الْفلورَسِنْتِ) الْبَيْضاءِ، وَبِأَنَّ عَدَدَها قَدْ زادَ عَمّا كانَ مَوْجودًا، وَعَرَفْنا أَنَّ شَريفًا قَدْ حَضَرَ إِلى الْفَصْلِ قَبْلَ بَدْءِ الْيَوْمِ الدِّراسِيِّ وَمَعَهُ كَهْرُبائِيٌّ بَدَّلَ الْمَصابيحَ كَتَبَرُّعٍ مِنْهُ لِلْفَصْلِ، وَذلِكَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مُوافَقَةَ الْمُشْرِفِ طَبْعًا. لَمْ يَكُنْ هُناكَ مُبَرِّرٌ لِهذا التَّغْييرِ، فَالْإِضاءَةُ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَةً، لكِنْ أَيْضًا لَمْ يَخْطُرْ بِبالي أَنَّ هذا جُزْءٌ مِنْ خُطَّةٍ يُنَفِّذُها شَريفٌ. أَتى مَوْعِدُ امْتِحانِ الشَّهْرِ، وَقَدْ كُنّا كُلُّنا نَنْتَظِرُ نَتيجَةَ هذِهِ الْمَعْرَكَةِ بِشَغَفٍ. هَلْ سَيَحْتَفِظُ حَسّونَةُ بِمَرْكَزِهِ الْأَوَّلِ عَلى الْفَصْلِ؟ أَمْ أَنَّ شَريفًا سَيُوْقِفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ كَما قالَ؟

كُنْتُ أَنا الْوَحيدَ الَّذي يَعْرِفُ سِرَّ حَسّونَةَ، لكِنَّني لَمْ أَرْغَبْ في أَنْ أُفْشِيَ السِّرَّ، لَيْسَ خَوْفًا مِنْ حَسّونَةَ وَلكِنْ لِأَنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَدِّقَ! وَشَريفٌ كانَ قَدْ طَلَبَ مِنّي أَلّا أَتَدَخَّلَ في الْأَمْرِ مُنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتي ضَرَبَني فيها حَسّونَةُ دونَ أَنْ يُحاوِلَ مَنْعَهُ.

ما إِنْ بَدَأَ الِامْتِحانُ حَتّى رَفَعَ شَريفٌ يَدَهُ وَطَلَبَ إِضاءَةَ كُلِّ الْمَصابيحِ لِأَنَّهُ لا يَرى جَيِّدًا.



تَعَجَّبَ الْمُعَلِّمُ لِهذا الْأَمْرِ فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ داعٍ، لكِنَّهُ أَضاءَها عَلى أَيِّ حالٍ.

كانَ الْمُعَلِّمُ يَقِفُ بِجِوارِ حَسّونَةَ مُنْتَبِهًا لِما يَفْعَلُ، وَهِيَ عادَةٌ اكْتَسَبَها الْمُعَلِّمونَ بَعْدَ تَفَوُّقِهِ الْمُفاجِئِ وَشَكِّهِمْ في أَنَّهُ يَغُشُّ بِطَريقَةٍ مُبْتَكَرَةٍ، لكِنَّ حَسّونَةَ هذِهِ الْمَرَّةَ كانَ عَلى غَيْرِ ما يُرامُ، وَكانَ يَبْدو أَنَّهُ يَعْتَصِرُ ذِهْنَهُ لِيَتَذَكَّرَ دونَ جَدْوى، ثُمَّ انْتَهى الِامْتِحانُ دونَ أَنْ يَكْتُبَ شَيْئًا.

بَعْدَ انْتِهاءِ الْوَقْتِ، جَلَسَ الْمُعَلِّمُ إِلى مَكْتَبِهِ وَأَخَذَ يُصَحِّحُ الْأَوْراقَ وَيُعْلِنُ النَّتائِجَ، فَحَصَلَ شَريفٌ عَلى دَرَجَتِهِ النِّهائِيَّةِ الْمُعْتادَةِ، بَيْنَما عادَ حَسّونَةُ إِلى أَصْفارِهِ. فَصَفَّقَ الْفَصْلُ لِشَريفٍ وَبَدا أَنَّ الْجَميعَ سُعَداءُ بِهذِهِ النَّتيجَةِ، حَتّى وَإِنْ لَمْ يَفْهَموا كَيْفَ حَدَثَ ما حَدَثَ الشَّهْرَ الْماضي، وَلِماذا لَمْ يَحْدُثْ هذا الشَّهْرَ. بَعْدَ انْصِرافِ الْمُعَلِّمِ أَرادَ حَسّونَةُ أَنْ يَعودَ إِلى التَّحَرُّشِ بِشَريفٍ، لكِنَّهُ ووجِهَ بِمُعارَضَةٍ هذِهِ الْمَرَّةَ؛ إِذ صاحَ بِهِ مُعْظَمُ الزُّمَلاءِ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ سَخافاتِهِ، فَعادَ إِلى مَكانِهِ مُنْسَحِبًا مِنْ قُوَّةِ الْعُيونِ الْغاضِبَةِ وَهُوَ يَكادُ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا.



"الْآنَ قُلْ لي يا شَريفُ؛ ماذا فَعَلْتَ؟ أَنا أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ لَهُ عَلاقَةٌ بِمَصابيحِ الْإِنارَةِ الَّتي تَغَيَّرَتْ". قالَ شَريفٌ: "أَنْتَ لا تَعْرِفُ أَنَّني عُدْتُ لِلْبَحْثِ عَنِ الْكَشْكولِ الَّذي طَوَّحَ بِهِ حَسّونَةُ عَبْرَ الشّارِعِ، وَأَخَذْتُ أَدْرُسُ ما فيهِ، خاصَّةً الْأَجْزاءَ الْحَديثَةَ الْمُدَوَّنَةَ بِالْخَطِّ السَّيِّئِ ، وَقَدْ أَرْهَقَتْني حَتّى اسْتَطَعْتُ أَنْ أُمَيِّزَ ما هُوَ مُدَوَّنٌ بِها، وَهكَذا اسْتَطَعْتُ اسْتِخْلاصَ بَعْضِ الْمَعْلوماتِ الْمُفيدَةِ في النِّهايَةِ. كانَ الدُّكْتورُ إِبْراهيمُ صاحِبُ الِاخْتِراعِ -وَقَدْ عَرَفْتُ اسْمَهُ مِنْ إِحْدى الصَّفْحاتِ الدّاخِلِيَّةِ- قَدْ لاحَظَ بَعْدَ أَنْ جَرَّبَ الْجِهازَ عَلى نَفْسِهِ، أَنَّ الْمَعْلوماتِ الَّتي يَحْصُلُ عَلَيْها بِالشُّعاعِ لَيْسَتْ ثابِتَةً تَمامًا، كَما لاحَظَ أَنَّ التَّعَرُّضَ لِبَعْضِ الْأَجْهِزَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ الَّتي تَحْتَوي عَلى مُحَرِّكٍ، كَالثَّلّاجَةِ وَالْخَلّاطِ وَالْمُجَفِّفِ وَالْمِكْنَسَةِ الْكَهْرُبائِيَّةِ، يُؤَدّي إِلى مَسْحِ الْمَعْلوماتِ الْمُكْتَسَبَةِ، ذلِكَ لِأَنَّ هذِهِ الْأَجْهِزَةَ تُطْلِقُ مَوْجاتٍ كَهْرومِغْناطيسِيَّةٍ. وَقَدْ فَسَّرَ الدُّكْتورُ ذلِكَ بِأَنَّ هذِهِ الْمَوْجاتِ تُؤَدّي إِلى مَنْعِ إِفْرازِ مادَّةٍ اسْمُها (السّيروتونينَ) في الْمُخِّ،

وَرُبَّما كانَ لِهذِهِ الْمادَّةِ عَلاقَةٌ بِالتَّوصيلِ الْكَهْرَبِيِّ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْمَناطِقِ مِنَ الْمُخِّ. أَيًّا ما كانَ تَفْسيرُ الْأَمْرِ، فَقَدْ كانَتْ هذِهِ الْمَعْلومَةُ بالِغَةَ الْأَهَمِّيَّةِ.

هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ يُطْلِقُ مَوْجاتٍ كَهْرومِغْناطيسِيَّةً شَبيهَةً وَهُوَ مَصابيحُ (الْفلورَسِنْتِ)، لِذا فَقَدْ فَكَّرَتُ أَنَّها شَيْءٌ مُناسِبٌ لِلتَّرْكيبِ في الْفَصْلِ، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُحْضِرَ ثَلّاجَةً وَأَضَعَها بِجانِبِ حَسّونَةَ أَثْناءَ الِامْتِحانِ!

وَهكَذا كانَتْ فِكْرَةُ هذِهِ الْمَصابيحِ، الَّتي عُدِّلَتْ بِإِضافَةِ مُواسِعاتٍ إِضافِيَّةٍ لِتَتَضاعَفَ كَمِّيَّةُ الْمَوْجاتِ الصّادِرَةِ عَنْها. لَمْ أَكُنْ واثِقًا مِنْ مَدى صِحَّةِ ما أَفْعَلُ، لكِنَّهُ نَجَحَ في النِّهايَةِ!".

كُنْتُ سَعيدًا بِهذِهِ النَّتيجَةِ، خاصَّةً بِالْأُسْلوبِ الَّذي تَحَقَّقَتْ بِهِ، فَقَدْ انْتَصَرَ شَريفٌ عَلى حَسّونَةَ بِالْعَقْلِ: بَحَثَ عَنِ الْمَعْلوماتِ وَحَصَلَ عَلى ما يَحْتاجُهُ مِنْها، وَنَفَّذَ الْخُطَّةَ عَلى أَساسٍ عِلْمِيٍّ، وَلَمْ يُضْطَرَّ لِاسْتِخْدامِ عَضَلاتِهِ!

لكِنْ هَلْ انْتَهى الْأَمْرُ عَلى هذا النَّحْوِ؟

هَلْ سَيَعودُ حَسّونَةُ لِلْحُصولِ عَلى الْمَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ في صورَةِ نَبَضاتٍ كَهْرَبِيَّةٍ تَنْتَقِلُ إِلى مُخِّهِ مُباشَرَةً؟ أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ حَسّونَةَ سَيَيْأَسُ وَيَظُنُّ أَنَّ هُناكَ خَطَأً ما يَحْدُثُ، وَمَصابيحَ الْفْلورَسِنْتِ سَتُوْقِفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ، لِذا فَإِنَّ أَهَمَّ شَيْءٍ الْآنَ هُوَ أَلّا يَكْتَشِفَ سِرَّها. لكِنْ ماذا عَنِ الدُّكْتورِ إِبْراهيمَ؟

هَلْ هُوَ مُسْتَمِرٌّ في إِجْراءِ التَّجارِبِ؟ وَهَلْ سَيَجِدُ حَلًّا لِمُشْكِلَةِ تَلاشي الْمَعْلوماتِ عِنْدَ التَّعَرُّضِ لِلْمَوْجاتِ الْكَهْرومِغْناطيسِيَّةِ؟ هَلْ سَيَجِدُ طَريقَةً يَجْعَلُ بِها تَثْبيتَ الْمَعْلوماتِ في الْمُخِّ كامِلًا؟

لكِنْ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذلِكَ، هَلْ سَيَأْتي ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذي لا نُضْطَرُّ فيهِ إِلى الذَّهابِ إِلى الْمَدارِسِ؟


النِّهايَةُ
مسودة
د/ابراهيم